موعد مع الطبيبة

بقلم: منى محمد العمد
الأردن

دخلت مطبخها في الصباح الباكر متثاقلة، فتحت الثلاجة، ماذا يمكن أن تعد اليوم للغداء؟ لديها بعض الخضار، باستطاعتها أن تعد طبق الخضار المنوع، إنه الطبق الذي يفضله زوجها، عسى ألا يجد ما يلومها عليه اليوم، فهي لم تعد تحتمل المزيد من النقد الذي اعتاد زوجها أن يوجهه لها يومياً، حتى لقد أصبح النقد هو الطبق الذي تأكله على مائدة الغداء وكثيراً ما كان هو الطبق الوحيد.

أخذت في تقطيع الخضار وهي تردد : نحن نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل، حكمة جيدة، من يدرك معناها؟ يبدو أن هذه الحكمة - مثل أشياء كثيرة أخرى - مقلوبة على أرض الواقع، أو على الأقل في بيتها الصغير.

جرحت يدها وهي تقطع الدجاج، وسال دمها، رمت السكين من يدها وجلست على أقرب مقعد، وأخذت تبكي، فقد نبه هذا الجرح الصغير في يدها جراحها الغائرة التي ملأت قلبها ونفسها وروحها.

انتهت من إعداد الطبق، واجتهدت في تقدير كمية الملح والتوابل الأخرى حتى لا تكون أقل أو أكثر من المطلوب فتعرض نفسها لملاحظاته اللاذعة، لم تستطع حتى أن تتذوق الطعام، فهي في بداية حملها وتعاني من أعراض وحم عسر، وضعت يدها على بطنها، يا لهذا المخلوق الصغير! إنها حتى لا تتطلع إلى قدومه مثل بقية الأمهات.

أيقظت زوجها، وهي تحضر حقيبتها، لم تنس سجل تحضيرها وأوراق الطالبات التي سهرت في تصحيحها ليلة أمس، أفاق الزوج وهي تتهيأ للخروج، قال: أأنت ذاهبة إلى المدرسة؟

تصنعت التبسم وهي تقول: نعم.. ولدي اليوم موعد مع الطبيبة.

قال وهو يتثاءب: هل من الضروري أن تذهبي؟

قالت: إني متعبة جداً، ولعلها أن تقول لي شيئاً، وأضافت وهي تنظر إلى بطنها: ربما تريحني مما أجد.

أدار وجهه إلى الناحية الأخرى وجذب إليه لحافه وهو يقول: ربما..!!

في العيادة، قالت لها الطبيبة: وزنك يتراجع، أنت نحيلة جداً وهذا لا يعجبني، ثم أضافت باسمة وهي تحاول حثها على الحديث: هل زوجك نحيل أيضاً؟

اكتفت بإشارة نافية. قالت

الطبيبة مداعبة: إذن فهو يأكل حصتك من الطعام، تمتمت تقول: ويأكل عمري.

سألت الطبيبة: ماذا قلت؟

ردت: لا شيء، لا شيء.

قالت الطبيبة: ينبغي ألا يسبب لك الحمل هذه الحالة التي أنت عليها ولذا أرى أن أحيلك إلى طبيب الأمراض الباطنية لمعرفة سبب حالتك هذه. وهناك تلطف الطبيب حتى أبلغها بضرورة عرضها على زميله المتخصص بأمراض القلب، وبذل ما في وسعه لتهوين الأمر عليها، بدا له عدم اكتراثها لما يقول في غاية الغرابة.

أجرى طبيب القلب اختباراته، ثم قال لها مبشراً: إن قلبك في حالة جيدة والحمد لله، وشرع يشرح لها حالتها. لم تلق بالاً لما يقول، بل ربما لم تكن تسمع، انتهى الطبيب إلى القول: الأمر بسيط جداً لا تقلقي. أومأت برأسها في صمت. لكنها عندما خرج الطبيب من غرفة الكشف انخرطت بالبكاء بصوت مسموع، خفت إليها الممرضة تحاول طمأنتها وتؤكد لها أن حالتها بسيطة.

التقطت نفسها وقالت: هذا ما يبكيني، كنت آمل أن يقول لي الطبيب بأني قريبة من النهاية لكنه خيب أملي.

قالت لها الممرضة في دهشة: ما هذا الذي تقولين؟ أنت بخير احمدي الله تعالى.

قالت: الحمد لله على كل حال، وأضافت وهي تمسح دموعها، نعم، الحمد لله فليس الموت مرتبطاً بمرض القلب أو غيره، وكم من صحيح مات من غير علة..

في المدرسة، تكررت ملاحظات زميلاتها، تبدين مرهقة اليوم، أشارت صديقتها إلى بطنها وهي تقول في مرح: يا لهذا المشاغب الصغير يرقد هنا في سكينة وطمأنينة ويتسبب لك بكل هذه المعاناة!!

ابتسمت وقالت: قد يكون بريئاً من هذه التهمة أكثر مما تظنين.

قالت صديقتها مستوضحة: مهلاً، أهناك ما لا أعرفه؟

ردت باقتضاب: ربما كان هناك ما لا أعرفه أنا نفسي!

- ما بك؟ أفضي إلي، ألسنا صديقتين؟

- بلى، ولكن، سكتت قليلاً ثم قالت: ما ظنك بامرأة دخلت برزخاً، لا هي تستطيع اجتيازه، ولا تقوى على العودة منه، فهي تراوح مكانها بانتظار نهاية ما.

- هوني عليك، فما بعد الليل إلا النهار.

- أي ليل وأي نهار؟ أنا أعيش في غسق دائم، أكاد لا أشعر بتعاقب النور والظلام.

- هذا ضعف، انهزام، يجب أن تقاومي.

نظرت إليها كمن ينظر من عالم آخر، ولم تجب بشيء.

حاولت صديقتها إخراجها مما هي فيه، قالت: فأين أحلامك؟ وأحلامنا؟ ألم نكن نسعى لتحقيق حياة أفضل لقريتنا بل لأمتنا؟

ردت بيأس: لم أعد أجد هذه الأحلام، ربما اصطدمت بصخرة عاتية فتساقطت قطعاً.

قالت الصديقة: هل سأحمل الأحلام وحدي؟

ابتسمت «ريا» متعاطفة مع صديقتها وقالت لها: أما أنا فلم يبق لدي ما أحلم به، ثم أضافت: الأحلام تموت كما يموت الناس.

استمدت الصديقة قوة من بسمة ريا، وقالت في عزم: بل الأحلام تبعث في أصحابها روحاً جديدة، تحييهم.

ابتسمت مرة أخرى وقالت لصديقتها مشفقة: لقد أسمعت لو ناديت حياً، ألا ترين أنك إنما تكلمين ميتة تمشي على الأرض؟

رن جرس المدرسة واضعاً حداً لحوار كان قد توقف أصلاً، ومعلناً انتهاء يوم دراسي آخر.

تناولت ريا حقيبتها ومضت تمشي إلى منزلها القريب، وما أن لاح لها حتى شعرت بالعجز، لم تستطع مواصلة المشي، توقفت واتكأت على الجدار، أزكمت أنفها رائحة قتار تنبعث من أحد البيوت القريبة، ويبدو أنها من بيت هذه العجوز الجالسة هنا، إنها رائحة طيبة تنبه إحساسها بالجوع فهي لم تتناول وجبة جيدة منذ أيام.

كانت العجوز المهيبة تجلس أمام بيتها تحمل بيدها عصا تتوكأ عليها

إذا قامت ولها مآرب أخرى، فقد فوضت أعمال المنزل إلى بناتها وحلائل أبنائها، وتحملت هي مسؤولية الإشراف على الشؤون العامة واتخاذ القرارات المهمة وما دام كل شيء يسير في البيت الكبير كما تروم، فلا ضير من أن تجلس هنا تمتع ناظريها بربيع أطل على القرية بوجهه الجميل فاهتزت له أرضها وأنبتت من كل زوج بهيج، وتفتحت الأزهار بألوان شتى على رؤوس الأعشاب، كل ذلك يشيع في نفسها أجواء من الفرح والبشاشة ويفتح أبواب أمل عريض.

أخذت تراقب الأطفال في مشهدهم اليومي، يلعبون تارة ويتشاجرون أخرى، يجلسون على الأرض يبنون من الطين بيوتاً ثم يهدمونها في لهو ومرح، إنها تفكر في زيارة المدرسة غداً لعرض اقتراحاتها بشأن الإفادة من طاقات هؤلاء الأطفال في عمل جماعي لصالح هذه القرية كتنظيفها وتزيين مداخلها.. وقعت عيناها على المعلمة البائسة، قالت لنفسها أهذه ريا التي احتفلت القرية بعرسها منذ قرابة السنة؟! قامت إليها تسندها وهي توشك أن تخفق من الضعف. شعرت المرأة الكبيرة بالأسى فريا التي عرفتها لم تعد تحمل في أثوابها غير بقايا امرأة، أصرت على إدخالها المنزل، وجاءتها بكأس من عصير الليمون الطازج.

هل الغداء جاهز؟ صاحت العجوز.

- دقائق ويكون جاهزاً، ردت زوجة ولدها.

قالت العجوز: اسكبي طبقاً لريا فهي ضيفتنا اليوم وأول من يتذوق غداءنا. هيا بسرعة.

أخذت ريا في تناول غدائها، والعجوز تتظاهر بالانشغال عنها بحياكة شيء في يدها، بينما كانت ترمقها من بعيد محاولة قراءة حكايتها التي كانت ترويها نظراتها ولفتاتها وصمتها وبعض فلتات لسانها، على مقربة منهما بدأ طفل رضيع بالبكاء، لم تلتفت إليه جدته، قالت ريا -ولم تحتمل- بكاء الصغير: الطفل يبكي يا خالة.

ردت بهدوء: دعيه، إنه يعرف ما يريد.

تململت ريا وتلمست بطنها وقالت: اسمحي لي بحمله أنا سأسكته.

قالت العجوز: افعلي إن شئت.

حملت ريا الطفل الرضيع وضمته إلى صدرها وأخذت تهدهده، سكت الصغير ملياً بين يديها، لكنه عاد يبكي ثانية واشتد صراخه، فنظرت إلى العجوز متسائلة: ما العمل؟ إنه طفل صغير لا حول له ولا قوة.

قالت العجوز: ألم أقل لك إنه يعرف ما يريد؟ وأضافت في حزم: وسوف يحصل على بغيته بطريقته.

ما هي إلا لحظات حتى دخلت امرأة مسرعة تجفف يديها على عجل وتناولت الطفل من ريا وألصقته إلى صدرها بحنان ظاهر، وأخذت ترضعه.

ركزت العجوز نظرها على عيني ريا وقالت مبتسمة: هذه واحدة.

سألت ماذا تعنين؟

قالت العجوز: أرأيت لو أن الطفل لم يصرخ كما سمعت أكانت أمه تترك عملها وتأتي لإرضاعه على عجل هكذا؟

قالت: لا أظن ذلك.

عادت العجوز للتشاغل بالحياكة وتركت ضيفتها غارقة في تأملاتها، ثم صاحت تقول: أين الشاي؟

ما لبثت قليلاً حتى دخل عليها بعض أحفادها يتصايحون، وكل يريد أن يشرح لها المشكلة، وبين يديهم لعبة تشبه الشطرنج يسمونها (البرسيس) قال أحدهم إنه دوري، وقال صغير مخاطباً جدته: إنهم لا يريدون أن يشركوني في اللعبة. يقولون لي أنت صغير. يريدون لي أن أتفرج عليهم فقط. قالت الجدة تحاوره: وما يضيرك أن تكون متفرجاً على اللعبة فلا تكسب ولا تخسر؟ قال الصغير معترضاً: إلى متى سأبقى متفرجاً؟! أريد أن آخذ دوري وألعب. قالت الجدة فإن خسرت؟ فكر قليلاً ثم قال في قوة: أخسر مرة وأربح مرة. المهم ألا أكتفي بالتفرج وهم يلعبون. مالت العجوز إلى ريا وقالت: هذه الثانية، سألت ريا: ماذا تقصدين؟ قالت: هذا الطفل لا يرضى بالتفرج وأقرانه يلعبون. وأنا أعرف واحدة ترضى بأن تكون هي حجر اللعبة. أطرقت ريا بينما أخذت الجدة في الفصل بين أحفادها بهدوء.

قامت ريا تستأذن للخروج شاكرة لمضيفتها كرمها ورعايتها. وقامت العجوز تخرج معها مودعة، عند باب المنزل رأتا طفلاً يقود شويهة بحبل في عنقها، تبادلت المرأتان نظرة سريعة، قالت ريا ضاحكة: هل هذه هي الثالثة؟

ردت العجوز ضاحكة أيضاً: أنا لم أقل شيئاً.

قالت ريا محاولة استدراجها: لكنك أردت أن تقولي، أليس كذلك؟

ردت العجوز مداعبة: فإن أبيت، فهو تشبيه مع الفارق.

قالت تكتم ضحكتها: فما الفارق يا أستاذتي؟

ردت العجوز: أنت جميلة يا ريا، وضحكت المرأتان في فرح وسلمتا مودعتين على أمل تكرار الزيارة.

مشت ريا باتجاه بيتها الصغير، خيل إليها للحظة أن البيت يعج بأولادها وأحفادها، ابتسمت لهذا الخاطر، وتابعت طريقها بثقة.

عند الباب تلقاها زوجها قائلاً: تأخرت! لكنك... - أضاف مستدركاً -: أفضل حالاً الآن؟ قالت في مرح ظاهر: ألم أقل لك: إني كنت على موعد مع الطبيبة؟! ■

هذا الصمت مبحوحاً وهذه أصداؤه

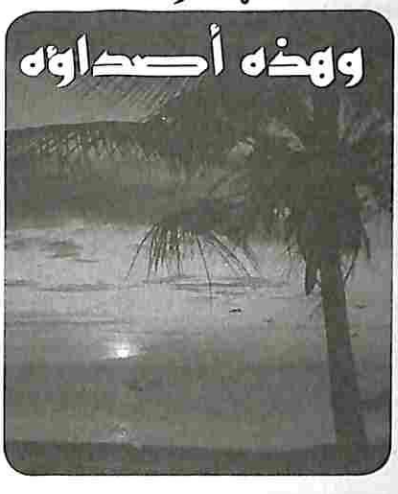

شعر: سعود بن سليمان اليوسف

السعودية

حمل الغروب جنائز الأضواء ... فبقيت أنقش في السكون رثائي

وتلمظت شفة الظلام بقية ... منها، وجفت آخر الأضواء

فغمست في شعري يراع مواجعي ... وسكبت في نفسي مداد غنائي

تقتات أسئلتي الصدى، فيمجها ... فتمجني في حيرتي وشقائي

وعلى رصيف الليل أنتظر الضحى ... عذب الدلال مشقشقاً برجائي

وإذا تطلّبت الدواء بحرقة ... أمسى التعزز منه أعضل داء

جدبٌ، ويورق بالظنون تساؤلي: ... أ لهالك الآمال جهد بقائي؟

أنا إن أعش لمشاعر مطموسة ... فولاء كل البدو للصحراء

أأنا غريبٌ؟ لا جواب! وحشرجت ... للصمت أحرفه، فضج مسائي

وطنٌ شعورك، غير أنك شاعرٌ ... وأشد شيء غربة الشعراء

قد بح صمتي في انتظار إجابة ... حتى سألت، فرددت أصدائي:

«من يغمض العينين عن آماله ... يعش الحياة معيشة الغرباء»